افتتاحية العدد:

مشروع الوحدة وتحدياته

بقلم الدكتورة نشأت نور الدين الخطيب

أستاذة التاريخ في الجامعة اللبنانية ورئيسة المنتدى القومي العربي

rimahkhatib@gmail.com

إنّ هدف مجلتنا العلمية «**وميض الفكر** » هو تقديم الأفكار القويمة التي تسهم في تقدّم أمتنا في عالم يتغير باستمرار. ويزداد الإنسان المعاصر حاجةً إلى معرفة الحاضر واستشراف المستقبل، إذ إنّ الإحاطة بالمعرفة والعلم في شتى مجالات الحياة، بما تحمله من تنوّع وتعقيد، أمرٌ يصعب تحقيقه دون الرجوع إلى التاريخ والجغرافيا.

فثنائية الشرق والغرب صنعها التاريخ والموقع الجغرافي لكلٍ منهما، وقد ارتبطت جغرافيًّا بمدى يصعب تحديده، يتمثّل في البحر الأبيض المتوسط؛ فمن جنوب أوروبا إلى السفح الإيراني وآسيا الوسطى والهند، وصولاً إلى الصحارى المحيطة بأفريقيا، يمتد مجال شبه متواصل تعاقبت عليه شعوب مختلفة طبعت هذا الفضاء بثقافاتها، سواء بالحرب أم بالسلم، حتى تشكّل عبر التاريخ ما عُرف بالوطن العربي الكبير الممتد من المحيط إلى الخليج.

وما نشهده اليوم من تكالبٍ على هذا الوطن المقسّم يدفعنا إلى التمسك بالمبادئ والأسس، والسعي إلى تطويرها بما يفضي إلى ترسيخ الأهداف الوحدوية التي تنقذنا من الضعف والتشرذم. ومن هنا، فإن الاستعراض التاريخي والجغرافي لهذه المنطقة العربية ضروري لمعرفة موقعنا الحضاري فيها.

وللوقوف على عتبة الوعي العلمي، نقرأ أولاً تلازم التاريخ والجغرافيا؛ فإذا كانت جغرافيا الحضارات لا تتبدل كثيرًا في التاريخ التكويني لثقافات الشعوب وحضاراتها، فإنّ أحداثًا قد تقع في أيام أو في أعوام قليلة تكون بمثابة زلزال يضرب أرضًا كانت تبدو سياسيًّا أو ثقافيًّا أو حضاريًّا أرضًا يابسة أو راكدة.

فالمتتبع لتاريخ الحضارات منذ نشأتها حتى نهاية الألف الثاني وبداية الألف الثالث يلاحظ زلازل كبرى وقعت في العالم، من أبرزها: زلزال أوروبا الشرقية المتمثل في سقوط جدار برلين، وزلزال الحرب على أمتنا العربية والإسلامية الذي لم تكتمل فصوله حتى الآن. وقد بدّلت هذه الزلازل الحضارية الكبرى كثيرًا في الجغرافيا الفكرية الراهنة لأمتنا؛ فما كان يُعرف بالستار الحديدي سقط، وما كان يُسمّى بالأمن العربي والإسلامي لم يعد كذلك.

فكيف، والحال هذه، نواجه الواقع المؤسف لأمتنا العربية والإسلامية التي كانت قوتها دومًا في الاتحاد والتنوع ضمن وحدة الأمة، في هذا الوطن العربي الكبير الذي كان مهد الحضارات الإنسانية والأخلاقية والدينية، ومهبط الديانات السماوية؟

إن انتقال الوعي العلمي من مفهوم **وحدة الحضارة** إلى **تنوّع الحضارات** لا يعفينا، نحن العرب، من التمسك بحضارتنا الخاصة بوصفها مرجعية ثقافية؛ فهي الحضارة التي ترشدنا إلى حضورنا في هذا العالم المضطرب اليوم. وينبغي أن تنطلق هذه المرجعية من ذواتنا، استنادًا إلى تاريخية حضارتنا التي قال عنها الرسول العربي صلى الله عليه وسلم: «**ليس منا من لا يغدو عالماً أو متعلما**» .

لقد سبقت حضارتنا الغرب في التقنيات والعلوم الطبية والفكرية في شتى مناحي الحياة، مثل الرياضيات والفلك والجبر والهندسة. ولا ينبغي أن ننسى **جدّ المؤرخين الحضاريين ابن خلدون** ونظريته في تعاقب الأجيال والمدنيات والحضارات، وانقلاب العمران بانقلاب الأنظمة السياسية والعلمية، لفهم موقع مدارنا العربي والإسلامي.

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الأولى وتقسيم بلادنا إلى دويلات بموجب **معاهدة**

سايكس–بيكو، استطاع الغرب السيطرة على مقدراتنا واستنزاف شعوبنا. وكان من أبرز ما قام به زرع إسرائيل في قلب أمتنا، فأصبحت بعدها أمة متفرقة متناحرة، مستغلة من الغرب.

إن الاستعراض التاريخي لهذه المنطقة يدفعنا إلى التمسك بالأهداف الوحدوية التي تنقذنا من هذه الحالة المأساوية. ويخبرنا تاريخنا عن ثلاث محاولات سعت إلى تحقيق المشروع القومي في التاريخ الحديث والمعاصر، امتدت عبر قرنين تقريبًا بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن العشرين، غير أنّ هذه الفرص التي أتيحت للمشروع القومي لتحقيق هذا الحلم كانت قصيرة العمر نسبيًّا.

فالمحاولة الأولى قادها **الأمير المملوكي علي بك الكبير**، ولم تدم أكثر من خمس سنوات، إذ تفككت بعدها الدولة التي ضمت مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام (فلسطين وسوريا ولبنان).

أما المحاولة الثانية فقادها **محمد علي باشا**، وقد ضمّت معظم بلدان الوحدة الأولى وأضافت إليها السودان.

أما المحاولة الثالثة فهي **الوحدة المصرية السورية** التي قادها الرئيس **جمال عبد الناصر** عام 1958، وهي وحدة اندماجية لم تعش سوى ثلاث سنوات.

وفي هذه المحاولات الثلاث كان المشروع القومي ينطلق من أكبر الأقطار العربية تقدمًا حضاريًا، وهي مصر، التي شكّلت قاعدة هذه المحاولات. ولم يكن من الممكن تنفيذ المشروع القومي بعيدًا عن الصراعات الدولية التي خشيت أن تصبح الوحدة العربية وسيلة للتحكم في شرايين التجارة الدولية، والتي شاءت المصادفات الجغرافية أن يمرّ معظمها في أرض العرب.

وهكذا أصبح المشروع القومي قضية دولية بقدر ما هو قضية محلية. فزرع إسرائيل في قلب عالمنا العربي سهّل للغرب السيطرة على منطقتنا. والدليل على ذلك وقوف الغرب السياسي، بكل دوله، إلى جانب إسرائيل ومساندتها، وتأييدها رغم ممارساتها العنيفة، دون إدانتها كدولة مارقة لا تلتزم بالأنظمة الدولية أو بقرارات الأمم المتحدة، طالما أنها زرعت لتكون موقعًا متقدمًا للغرب الاستعماري في قلب أمتنا.

وقد قال وزير خارجية بريطانيا **اللورد بالمرستون** عام 1840 إن وجود إسرائيل يهدف إلى الحيلولة دون تكرار محاولات توحيد المشرق العربي؛ فإقامة دولة يهودية تفصل المشرق العربي عن مغربه عُدّت ضرورة استراتيجية في نظر الغرب.

ومنذ عام 1948 عجز العرب عن إزالة هذا الحاجز، وخضعوا لتطبيق ما يراه الغرب الاستعماري، من بريطانيا إلى الولايات المتحدة، ضرورةً لتحقيق السلام بين الدول، وهو سلام تدّعي تلك القوى أنها جاءت لإرسائه، بينما تقوم في الواقع بإضعاف مجتمعاتنا تحت تسميات مختلفة مثل اتفاقيات السلام أو مشاريع الديانة الإبراهيمية، في محاولة لطمس قيمنا العربية والإسلامية وتعميق حالة التشرذم وإلغاء تاريخنا وحضارتنا.

وقد جعلنا ذلك لقمة سائغة لأعدائنا، وبدونا في تفرقنا كأننا أمة بلا حضارة ولا تاريخ ولا موقف موحّد، وكأننا طفيليات على موائد الغرب، مع أن أجدادنا كانوا من قدّموا القيم الحضارية والعلم والتقنيات في عصرهم. وإن عدم التمسك بجذور حضارتنا، وعدم السعي الجاد لتطويرها في ظل التقدم العلمي المعاصر، يحول دون قدرتنا على محاكاة حضارة أسلافنا التي شكّلت في يوم من الأيام أحد الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية.